إلى مُخْتَبِري الحَزَنِ!

قراءة نقديَّة في كتاب «ضَحِكُ سَارَّة: الشَّك والدُّموع والرَّجاء المسيحيّ» لـ فينوث رامتشاندرا

يكتُبه جورج إسحق

> "... لكن السُّؤال 'لماذا؟' ليس دعوة لشرحٍ نظريٍّ للمُعاناة والشَّرّ. إنَّه تعبير عن عذاب وجوديّ بسبب صمت وتراخي الله في وجه التَّهديد والكارثة والمُعاناة التي لا تُخفَّف. إنه هو السُّؤال حقًّا: 'لماذا يا رب أنت مُختفٍ وغير مبالٍ أو غائب؟'... هذا ما لا يمكن احتماله. تضعف الثِّقة باللهِ. هل قوة اللهِ محدودة بأعمال التَّبرئة التي حدثت في الماضي، أم أنه لا يزال محلَّ ثقةٍ ليصنع فرقًا في العالم اليوم؟"[1]

يُعدّ كتاب «ضَحِكُ سَارَّة: الشَّك والدُّموع والرَّجاء المسيحيّ» *Sarah's Laughter: Doubt, Tears, and Christian Hope* بقلم فينوث رامتشاندرا، تأملًا عميقًا في مُعاناة الإنسان من منظور لاهوتيٍّ وفلسفيٍّ. المُميز في هذا الكتاب هو استناد مؤلفه إلى خبراته الشَّخصيَّة بوصفه لاهوتيًّا مسيحيًّا من سريلانكا، عاش في بيئة شهدت كوارث طبيعيَّة وعنفًا بشريًّا، ليواجه التَّحديات الفكريَّة والأخلاقيَّة والسياسيَّة التي تطرحها المُعاناة على الإيمان في عالمنا المُعاصر. هو كتاب لا يُنَظِّرُ عن الألم، بل هو وليد الألم، من رَحِم المُعاناة، لذا فهو يجد طريقه إلى قلبك أوَّلًا، ثمَّ إلى عقلك.

عن الكتاب والكاتب

يتناول الكتاب موضوع المُعاناة البشريَّة، متسائلًا عن كيفيَّة التَّوفيق بين حقيقة وجود الألم، والإيمان بإله مُحب. يُبرز رامتشاندرا أهميَّة التَّعبير عن الحزن والشَّك والتَّساؤل كجزءٍ من الحياة المسيحيَّة، مؤكدًا أنَّ الفرح والاحتجاج، والإيمان والغموض، يمكن أن يتعايشوا في حياة التِّلميذ المسيحيّ. يُشجع على مواجهة الظَّلام في العالم، مُقتديًا بالله المتجسِّد، لنرى الخليقة الجديدة.

صدر هذا الكتاب في الإنجليزيَّة بعنوان: ***Sarah's Laughter: Doubt, Tears, and Christian Hope*** عن لانجهام، عام 2020، في 137 صفحة من القطع المتوسط. وترجمه القسّ سامح

[1] رامتشاندرا، **ضحك سارة: الشك والدموع والرجاء المسيحي**، ترجمة: سامح إبراهيم (القاهرة: إنسباير للنشر والتوزيع، 2023)، 23.

إبراهيم، وصدر عن دار إنسباير للنَّشر والتَّوزيع عام 2023، حاملًا رقم ISBN: 978-977-85609-6-1. ورقم إيداع: 3166/ 2023.

أشهر ما قيل عن الكتاب، هو ما قاله مارك لابيرتون، رئيس كلية فولر اللَّاهوتيَّة: "يُقدم رامتشاندرا في هذا الكتاب دراسة غنيَّة ومؤثرة، تجمع بين التَّجربة الشَّخصيَّة والتَّحليل اللَّاهوتيّ العميق."[2] كما أشار ستيفن ويليامز، الأستاذ الفخري في جامعة كوينز، إلى أن الكتاب: "يُقدم تشريحًا بليغًا للألم والمُعاناة البشريَّة، ويدعونا للاعتراف بها في حضرة الله."[3]

يحمل فينوث رامتشاندرا درجة الدكتوراه في الهندسة النَّوويَّة من جامعة لندن. وهو سكرتير الحوار والمشاركة الاجتماعيَّة مع الزَّمالة الدَّوليَّة للطلاب الإنجيليين (IFES)، وهي شراكة عالميَّة تضم أكثر من 150 حركة مسيحيَّة على مستوى الجامعة. كان فينوث الأمين العام المؤسس لزمالة طلاب الجامعات المسيحيَّة (FOCUS) والأمين الإقليمي لـ IFES جنوب آسيا قبل الانتقال إلى فريق القيادة العليا لـ IFES. شارك فينوث أيضًا في حركة الحقوق المدنيَّة في سريلانكا، وكذلك مع شبكة ميكا العالميَّة (شبكة من منظمات التَّنمية والعدالة) وشبكة روشا (وهي منظمة عالمية لحفظ التَّنوع البيولوجيّ). وهو أيضًا عضو في المجلس الاستشاريّ الدَّوليّ لمعهد فاراداي للعلوم والدِّين، ومقرَّه في كامبريدج، إنجلترا. وهو مؤلف عديدٍ من المقالات والكتب منها: "هدم الأساطير العالميَّة: اللَّاهوت والقضايا العامَّة التي تشكل عالمنا،" و"الكنيسة والإرساليَّة في آسيا الجديدة." تزوج فينوث منذ ما يقرب من عشرين عامًا من زوجته الدَّنماركيّة كارين، التي توفيت في عام 2018 بعد صراع مع مرض السَّرطان.[4]

تقسيم فصول الكتاب وموضوعاتها

يتألَّف الكتاب من خمسة فصول رئيسة، بالإضافة إلى مقدِّمة وخاتمة:[5]

الفصل الأوَّل، لماذا، يا رب، تحجب وجهك؟ يناقش رامتشاندرا في هذا الفصل صمت الله في وجه المُعاناة، مستعرضًا تجاربه الشَّخصيَّة، مثل فقدان زوجته، والحروب في سريلانكا، والتَّحديات البيئيَّة. يطرح تساؤلات حول كيفيَّة التَّوفيق بين الإيمان والمُعاناة، مؤكدًا على أهميَّة التَّعبير عن الألم والشَّك كجزء من العلاقة مع الله.

[2] https://bookshop.org/p/books/sarah-s-laughter-doubt-tears-and-christian-hope-vinoth-ramachandra/14754503?utm_source=chatgpt.com.

[3] https://bookshop.org/p/books/sarah-s-laughter-doubt-tears-and-christian-hope-vinoth-ramachandra/14754503?utm_source=chatgpt.com.

[4] https://thewell.intervarsity.org/book-clubs/sarahs-laughter-discussion-guide?utm_source=chatgpt.com.

[5] للمزيد من الفهم حول محتوى الكتاب، يمكن مشاهدة إطلاق الكتاب الافتراضي الذي يتحدث فيه المؤلف عن أفكاره وتجربته الشخصية. https://www.youtube.com/watch?v=3CBLw39vGd0.

الفصل الثَّاني، أيوب وفوضى اللَّاهوت: يتناول هذا الفصل قصَّة أيُّوب، مسلطًا الضَّوء على كيفيَّة تعامل أيُّوب مع مُعاناته والرُّدود التي تلقاها من أصدقائه. يشير رامتشاندرا إلى أنَّ محاولات تفسير المُعاناة قد تكون غير مفيدة، وأنَّ الصَّمت والتَّسليم لله قد يكونان أكثر صدقًا في مواجهة الألم.

الفصل الثَّالث، دموع الله: يستكشف رامتشاندرا في هذا الفصل فكرة أن الله يشارك في مُعاناة البشر، متحديًا المفهوم التَّقليدي الذي يصور الله كغير متأثر. يستند إلى نصوص من العهد القديم وحياة المسيح ليؤكد أن الله يتألم مع شعبه، مما يعزز الرَّجاء في وسط الألم.

الفصل الرَّابع، الله والشَّر الطَّبيعيّ: يناقش هذا الفصل الكوارث الطبيعيَّة والشَّر النَّاتج عنها، مُتسائلًا عن دور الله في هذه الأحداث. يرى رامتشاندرا أنَّ الخطيَّة البشريَّة تؤثر على الخليقة، وأنَّ الله لا يسبب هذه الكوارث، بل يعمل من خلالها لتحقيق الخير.

الفصل الخامس، الزَّمن المستقبليّ: يختتم رامتشاندرا الكتاب بالتَّأمل في الرَّجاء المسيحيّ، مؤكدًا أنَّ الرَّجاء ليس تجاهلًا للمُعاناة، بل هو الثِّقة بأنَّ الله سيجدِّد كلَّ شيءٍ. يشجِّع القراء على العيش برجاء نشط، يعمل من أجل العدالة والرَّحمة في العالم.

إشارات أدبيَّة

يتميز الكتاب بأسلوبٍ سرديٍّ يجمع بين التَّأمل الشَّخصيّ والتَّحليل اللَّاهوتيّ ولا يغفل الخطاب العلميّ، لذا فهو يُعدّ خلطة خطابيَّة دقيقة، لا يضبطها إلَّا كاتب ماهر. يستخدم رامتشاندرا أسلوبًا بسيطًا وواضحًا، مما يُسهِّل على القارئ متابعة الأفكار المُعقَّدة. في الحقيقة، على مستوى السَّرد، نجح رامتشاندرا في إشراكي داخل سردياته، جعلني أُصادق شخوصه وأقتفي أثر حكاياتهم، بل وضع أسئلتهم وأسئلته على لساني في صلواتي طيلة قراءتي للكتاب! أنهض الذِّكريات من سُباتها، وحوَّل غرفتي الضَّيقة ذات الجدران الأربعة، إلى ساحات قتال وعراك وألم ومرض وكوارث، حتَّى رأيتها أحيانًا ملطَّخة بالدِّماء، وأحيانًا تئِنُّ، وأحيانًا تبكي! ومع ذلك، ربما يجد بعض القرَّاء أنَّ الانتقالات بين المواضيع ليست دائمًا سلسة، ما قد يُسبب لهم بعض التَّشتُّتِ.

في الفصل الأوَّل، لغة الألم هي البطل الذي يحوِّل دخولك إلى الكتاب إلى الباب الذي أراده الكاتب، ليُشرك عواطفك أيضًا في موضوعه، فيُجنِّبك جفاف التَّنظير. افتتاحيَّته عن الحرب الأهلية في موطنه سريلانكا، تُظهر أنَّ هذا الكتاب وإن كان مفعمًا بالأمل، فهو نطاق واسع من الألم، بما في ذلك ألمه الشَّخصيّ، فرغم أنَّه لم يذكر وفاة زوجته كارين إلَّا مرَّة واحدة في مطلع الكتاب، إلَّا أنَّ هذا الأمر ألقى بظلاله حتمًا على الكتاب –

والكتاب في الأصل مُهدى إليها. يقتبس المؤلف أيضًا من نيكولاس ولترستورف، من كتابه "رثاءُ ابنٍ" قوله: "جُرحي هو ذلك السُّؤال الذي لم يُجَاوب. إنّ جروح البشريَّة كلها هي سؤالٌ لم يُجَاوب."[6] ينتقد رامتشاندرا كثرة الكنائس التي لا ترثي لتلك الجروح، والتي لا تسمح بالتَّعبير عن هذا الألم.

أمَّا الفصل الثَّاني، فبطله هو السُّؤال. نجحت أسئلة الفصل الثَّاني أن تتقاذفني بين صفحاته، تمامًا كما تنجح دراما سفر أيُّوب في هذا في كلِّ مرّة أقرأه فيها. الأسئلة الكثيرة التي لم يُجب عنها في سفر أيوب هي محور الفصل الثَّاني. في الفصل الثّالث "دموع الله"، يستكشف رامتشاندرا حُزن الله على شعبه وما يعدُّه مُعاناته معهم. البطل في هذا الفصل –في رأيي– هو التّجسيد، حيث يُجاهد رامتشاندرا في إزاحة كلِّ الفواصل، وإزالة كلِّ المساحات بين الألوهة والبشر –اتفقنا أم اختلفنا– كان هذا سبيله ليقنع القارئ أنَّ الله يشعر به، وأظنه قد نجح في هذا.

في الفصل الرَّابع، يتجلى تركيز المؤلِّف على رعاية الله للعالم، والشَّر الطَّبيعي في العالم، مُستكشفًا الشُّرور والكوارث الطبيعيَّة وتبِعاتها على الحياة الإيمانيَّة والمؤمنين. بينما يتطلَّع الفصل الأخير إلى رجائنا المُستقبليّ بوصفنا شعب الله، في لغة وتصوير يَريان في مُعاناتنا الحاضرة رجاءً مُستقبليًّا يُرشد الآخرين إلى المسيح الذي أسَّس هذا الرَّجاء ويدعمه. ويُذكِّرنا أنَّ الكنيسة –تلك الشريحة من البشريَّة التي لمحت فجر أحد الفصح– بينما تُشارك آلام سبت الفصح في شركة مع بقيَّة البشريَّة، تسعى إلى أن تشهد لهذا الفجر.

اختيار البنية الأدبيَّة لهذا الكتاب اختيار صائب أفاد موضوع الكتاب –وهذه واحدة من المهارات التي يجب على الكُتَّابِ التَّدرب عليها. فإيقاع الكتاب الذي بدأ بلغة الألم، نجح في اجتذاب القارئ الذي عانى –بالتَّأكيد– الألم يومًا ما بطريقة أو أخرى، ثمَّ جاءت الأسئلة المفتوحة لتربت على كتف القارئ مُطمئنة إياه، وكأن لسان حالها: "لست وحدك الذي لم يصل إلى إجابات بعد." ما ساعد القارئ في الاستمرار، فيبدو أن أحدهم قد أحضره إلى هنا، لا ليُقرِّع مشاعره ويسكُب الملح على جراحه ويؤنِّب ضميره ويلوم إيمانه، بل ليربت على كتفه، وهو يُردِّد مع سيدنا له المجد: "ولا أنا أُدينك!" ثمَّ يُعافِر رامتشاندرا لتقريب المسافات بين المتألم والله، حتَّى يلغيها مُقدِّمًا صورة الله لا الذي يشعر بآلامنا فحسب، بل المتألم معنا، في محاولة لتهدئة قارئه. يدلف بعدها فينوث إلى إزاحة القلقلة التي أثارتها لغة الألم والأسئلة المفتوحة، مُستكملًا رحلة التَّهدئة من خلال تكوين صورة ذهنيَّة في عقل القارئ، مفادها أنَّ تداخل عناية الله في الخليقة والطَّبيعة يقوم في وجه ما سماه بالشَّر الطَّبيعي. ثمَّ أخيرًا، بعد أن هدئت عواصف قارئه المُهتاجة، يطلق رامتشاندرا نداءات الرَّجاء المليئة بالأمل، وكأنَّه يقول: "خلف كلِّ غيمة سوداء، مطر يُعيد للأرض رونقها!"

[6] رامتشاندرا، **ضحك سارة: الشك والدموع والرجاء المسيحي**، 31.

إشارات لاهوتيَّة

إنَّ الكتابة في موضوع الشَّرِّ والألم هي عملٌ دقيقٌ جدًّا، ومحفوفٌ بالمخاطر. يتطلَّب دقَّة وشجاعة أيضًا، إذ يدلف الكاتب إلى عمق النَّفس البشريَّة والذَّات الإلهيَّة في آنٍ واحدٍ، وهو مُحمَّلٌ بتوقّعات قُرَّائه أن يكشف غموضًا مُسيطرًا منذ فجر البشريَّة، ويُجيب عن أسئلةٍ مطروحةٍ منذ بداية الخليقةِ. في الحقيقة، هذه التَّوقّعات هي أكبر تحدٍّ في نظري يواجه من يمخُرَ عُباب هذا البحر. لكنَّ التَّحدي الثَّاني، والذي لا يقلّ خطورةً وصعوبةً، هو مُعالجة الموضوع لاهوتيًّا، دون التِّيه في صحراء التَّنظير، أو الخلط الذي يقوِّض ركائز البنية اللَّاهوتيَّة. هذا أدقُّ من التَّجارب النَّوويَّة –في نظري، إذ أنت مُهدَّدٌ بالانفجار في أيَّة لحظة!

واجه رامتشاندرا في هذا الكتاب ستَّة خطوط لاهوتيَّة بارزة على الأقل، سأحاول فيما يلي لفت الانتباه إليها، مُبيّنًا –قدر الطَّاقة والمساحة– مدى التَّقارب والاختلاف، وإلى أي مدى نجحت خلطة رامتشاندرا في الإبقاء على التَّوازن المطلوب.

أوَّلًا، الشَّرّ والألم نتيجةً للسُّقوط: يوافق فينوث رامتشاندرا أنَّ السُّقوط قد أدخل الشَّرَّ والألم إلى الخليقة. يشير إلى أنَّ الطَّبيعة نفسها أصبحت تُعاني "فَإِنَّنَا نَعْلَمُ أَنَّ كُلَّ الْخَلِيقَةِ تَئِنُّ وَتَتَمَخَّضُ مَعًا إِلَى الآنَ." (رومية 8: 22)، مما ينعكس في الكوارث الطبيعيَّة والأوبئة والحروب. في كتابه، يروي كيف كانت الحرب الأهليَّة في سريلانكا تجسيدًا حيًّا لهذا الانهيار الشَّامل للخليقة. يؤكد أنَّ السُّقوط لا يُفسِّر كل حدث مؤلم مباشرة، لكنَّه الخلفيَّة الكُبرى لكلِّ مُعاناةٍ. في الكتاب المقدَّس، سقوط آدم وحواء (تكوين 3) يمثِّل بداية الألم. يرى اللَّاهوت المُصْلَح أنَّ السُّقوط أفسد الإنسان والعالم، وأدى إلى الشَّر الأخلاقيّ والطَّبيعيّ معًا، ويعدّ هذا أساس الفهم لكلِّ الألم في العالم يصف إقرار إيمان وستمنستر حالة الإنسان بعد السُّقوط بالقول: "من هذا الفساد الأصلي [السُّقوط]، الذي به صرنا نافرين تمامًا من كل صلاح، وعاجزين عن فعله، ومقاومين له، وميالين كليًّا نحو كلِّ شر."[7]

ثانيًا، الشَّر والألم وقضيَّة حريَّة الإنسان: يُبرز رامتشاندرا أنَّ كثيرًا من الشَّر ينجم عن قرارات الإنسان الحرَّة. يستشهد بأمثلة مثل إزالة الغابات الجائرة التي أدَّت إلى كوارث طبيعيَّة في جنوب آسيا. يرى أنَّ حريَّة الإنسان دون حكمة تنتج ظلمًا بيئيًّا واجتماعيًّا. لكنَّه يرفض فكرة أنَّ الشَّر كلَّه نتيجة أفعال فرديَّة فقط، مُشيرًا إلى أن الخليقة مشوَّهة أيضًا –على حدِّ قوله. في الكتاب المقدَّس، حريَّة قايين قادته إلى قتل أخيه (تكوين 4). يُفسِّر اللَّاهوت المُصْلَح الحريَّة البشريَّة بأنها مقيّدة بالطَّبيعة السَّاقطة، حيث يميل الإنسان إلى الشَّر ما لم يتدخَّل الله

[7] إقرار إيمان وستمنستر، الفصل السادس، مادة 4. راجع أيضًا: رومية 5: 6؛ 7: 18؛ 8: 7؛ كولوسي 1: 21؛ تكوين 8: 21؛ انظر تكوين 6: 5؛ رومية 3: 10–12؛ متى 15: 19؛ يعقوب 1: 14–15؛ أفسس 2: 2–3.

بالنِّعمة المُخلِّصة. حرية الإنسان دون الله، تعني انفجار الشَّر وليس وأده. وهنا تظهر مساحة من التقارب والتباعد بين فكرة رامتشاندرا واللَّاهوت المُصْلَح.

ثالثًا، الشَّرُّ والألم عقابٌ على الخطيَّة: ينتقد رامتشاندرا الاعتقاد أنَّ الألم دائمًا عقاب مباشر على الخطيَّة. ويُشير إلى أنَّ أيُّوب كان بارًّا رغم مُعاناته، «...لأَنَّهُ لَيْسَ مِثْلُهُ فِي الأَرْضِ. رَجُلٌ كَامِلٌ وَمُسْتَقِيمٌ، يَتَّقِي اللهَ وَيَحِيدُ عَنِ الشَّرِّ». (أيوب 1: 8)، ومع ذلك اتَّهمه أصدقاؤه ظلمًا. يسرد فينوث تجربة مرض زوجته التي زلزلت إيمانه، مؤكدًا أنَّ المُعاناة لا يمكن اختزالها في معادلة "**خطيَّة = عقاب.**" يؤكِّد الكتاب المقدَّس أنَّ بعض المُعاناة تأتي كتأديبٍ، «يَا ابْنِي لاَ تَحْتَقِرْ تَأْدِيبَ الرَّبِّ، وَلاَ تَخُرْ إِذَا وَبَّخَكَ. لأَنَّ الَّذِي يُحِبُّهُ الرَّبُّ يُؤَدِّبُهُ، وَيَجْلِدُ كُلَّ ابْنٍ يَقْبَلُهُ.» (عبرانيين 12: 5–6)، لكنَّها ليست دائمًا قصاصًا. تقديم هذه الفكرة بصورة منقوصة تكتنفه بعض الخطورة، سواء إن قُلنا إنَّ الألم دائمًا عقابٌ وتأديبٌ، أو إن قُلنا إنَّه دائمًا ليس عقابًا. يُفرِّق اللَّاهوت المُصْلَح جيدًا بين التَّأديب الأبويّ والعقاب القضائيّ، ويُعلِّم أنَّ الله قد يستخدم الألم لتزكية الإيمان وليس فقط لمعاقبة الخاطئ، كما يظهر في قصَّة أيُّوب وتجربة بولس مع شوكة الجسد.

رابعًا، الله متسامٍ، أيْ ليس جزءًا من الخليقة: يؤكِّد رامتشاندرا أنَّ الله متسامٍ، موجود خارج الخليقة وغير محدود بزمان أو مكان. يستشهد برؤية إشعياء للرَّبِّ العالي (إشعياء 6: 1)، ليُعزِّز فكرة التَّسامي الإلهيّ. يوضح أن الله ليس جزءًا من الطَّبيعة أو خاضعًا لتقلبات العالم. رغم ذلك، الله قريب ويتواصل مع مخلوقاته. الكتاب المقدَّس يؤيد هذا (مزمور 113: 5–6) حيث الله "السَّاكِنُ فِي الأَعَالِي" لكنَّه "النَّاظِر الأَسَافِلَ"؛ لاحظ أيضًا كيف واجه برنابا وبولس في أعمال 14 ما انتوت الجموع فعله إزاء المعجزة التي أتياها بناء على فكرة أنَّ الآلهة تشبَّهَت بالنَّاس ونزلت إليهم في صورة بولس وبرنابا، حيث دافعا عن بشريتهما وخطَّآ هذه الادِّعاءات وكان جزء من دفاعهما هذا هو الآية 15: "نَحْنُ أَيْضًا بَشَرٌ **تَحْتَ آلاَمٍ** مِثْلُكُمْ..." مُنزهين بذلك الذَّات الإلهيَّة أن يعتريها الألم، الذي يستتبعه التَّغيير. يُشدِّد اللَّاهوت المُصْلَح على تسامي الله أيضًا وعدم تغيره، يقول إقرار إيمان وستمنستر مثلًا: "يوجد إله واحد فقط، حيٌّ، وحقيقيٌّ، غير محدود في كينونته وكماله، روح طاهر تمامًا، غير مرئي، بلا جسد، ولا أعضاء، ولا **مُعاناة بشريَّة...**"[8] لكنَّه، ومع ذلك، يؤكد أيضًا حضوره الفعَّال من خلال العناية الإلهيَّة وحفظ الخليقة بواسطة كلمته وقوته. في الحقيقة، هذا واحد من أدقّ التَّحديات. والسُّؤال هنا، إلى أي مدى نجح رامتشاندرا، وإلى أي مدى يمكن للَّاهوتيين أن ينجحوا في مُصَالحة فكرة أنَّ الله قريب يشعر بآلامنا، ولا يُحرِّكنا كقطع الشَّطرنج، مع حقيقة كونه متساميًا، لا يُعاني الألم البشريّ ولا يتغير؟ هذه مهمة دقيقة جدًّا، أعتقد أنَّ تجربة

[8] إقرار إيمان وستمنستر، الفصل الثاني، مادة 1.

رامتشاندرا الشَّخصيَّة كما أفادته في هذا الكتاب وقرَّبته من القارئ، ربما أعاقت ظهور هذا الخط اللَّاهوتيّ بصورة واضحة مؤكَّدة، أتفهَّم ذلك، فربما كان من الأسهل للمتألم أن يجتذب الله إلى ألمه عن أن يرتفع إلى الله فوقه.

خامسًا، الله يشعر بآلامنا مع أنَّ اللَّاهوت لا يتألم: يرفض رامتشاندرا الرَّأي المُحافظ، الذي يرى أنَّ الله لا يتألم. يرى في دموع المسيح عند قبر لعازر (يوحنَّا 11: 35) إعلانًا أنَّ الله في المسيح يشارك مُعاناة البشر. يرفض تصور إله غير متفاعل مع الألم. مع ذلك، يميز –حتَّى وإن ظهر هذا التَّمييز ضعيفًا بعض الشَّيء– أنَّ هذا لا يعني أنَّ الله يتغير أو يفقد طبيعته. يُقرُّ اللَّاهوت المُصْلَح المُحافظ، أنَّ طبيعة المسيح البشريَّة تألَّمت حقًّا، بينما طبيعته اللَّاهوتيَّة لم تتغير (اتحاد الطَّبيعتين). هذا يحفظ فكرة الله غير المتغير (ملاخي 3: 6)، ويؤكد في الوقت نفسه أنَّ المسيح تألم من أجل خلاص البشر بطريقة حقيقيَّة وعميقة. وهذه قضيَّة دقيقة أخرى، تحتاج إلى خطابٍ كتابيٍّ دقيق.

أخيرًا، النِّعمة العامَّة هي تدبير عناية الله في وجه الشَّر والألم: رغم أن رامتشاندرا لا يستخدم مصطلح "النِّعمة العامَّة" بشكل منهجيّ واضح، إلَّا أنَّ أفكاره تتَّسق مع هذا المفهوم. يرى أنَّ وجود الخير والرَّجاء وسط الشَّرِّ علامة على استمرار رحمة الله وعنايته بالخليقة. يشير إلى أن العمل الخيريّ، والرَّحمة بين النَّاس، وبقاء النِّظام الكونيّ رغم الحروب والكوارث، كلها أدلَّة على تدخلٍ إلهيٍّ مستمر. يُعلِّم الكتاب المقدَّس أنَّ الله «...يَفْعَلُ خَيْرًا: يُعْطِينَا مِنَ السَّمَاءِ أَمْطَارًا وَأَزْمِنَةً مُثْمِرَةً، وَيَمْلأُ قُلُوبَنَا طَعَامًا وَسُرُورًا.» (أعمال 14: 17). يُطوَّر اللَّاهوت المُصْلَح مفهوم النِّعمة العامَّة كوسيلة لحفظ النِّظام ومنع الانهيار التَّامّ حتى يتمِّم الله مقاصده الخلاصيَّة. يبدو هذا جليًّا في كتابات كالفن،[9] وفي الكالفينية الجديدة التي طوَّرها أبراهام كايبر وفتح من خلالها ملكوت الله من الكنيسة إلى العالم من خلال ما أسماه كايبر "دائرة السِّيادة."[10]

الخُلاصة

ضَحِك سارَّة، هو شهادة حيَّة أكثر من كونه أطروحة لاهوتيَّة. لا يقدِّم فينوث رامتشاندرا شرحًا نظريًّا للمُعاناة، بل اختبارًا شخصيًّا من قلب الألم. يحاول الكاتب معالجة التَّوتر بين الإيمان والواقع، بين الرَّجاء واليأس، دون تزييف أو تبسيط. ينتقد بشجاعة محاولات الكنائس تبرير المُعاناة بتفسيرات سطحيَّة. يطالب بإفساح المجال للحزن والشَّك والاحتجاج في الحياة الروحيَّة. يُعيد تقديم صورة الله ليس على أنَّه كائن بعيد غير متأثرٍ، بل شخص يتألم مع شعبه ويتحرك نحو خلاصهم. يتحدى هذا الموقف بعض الأسس اللَّاهوتيَّة المحافظة التي تؤمن أنَّ الله لا يتغير ولا يتألم.

---

[9] جون كالفن، **أسس الدين المسيحي**، ترجمة: جورج صبرا (بيروت: منهل حياة، 2017)، 191-219.

[10] موريس يوسف، **أبراهام كايبر والكالفينية الجديدة: الجذور والملامح** (القاهرة: رجاء للجميع، 2024)، 125-156.

يستخدم رامتشاندرا أمثلة من سفر أيُّوب، المزامير، وحياة المسيح، ليؤسس رؤيته. يرى أنَّ التَّجسد هو الدَّليل الأعظم على مشاركة الله في الألم البشريّ. يقترح أنَّ الرَّجاء المسيحيّ لا يعني تجاهل الألم، بل مواجهته بثقة بأنَّ الله يعمل وسط الظُّلمة من أجل تجديد العالم. أسلوبه يجمع بين التَّأمل الشَّخصيّ، التَّحليل اللَّاهوتيّ، والسَّرد القصصيّ. لغته الحيَّة تضع القارئ وسط المُعاناة، وتدعوه إلى التَّفكير العميق في طبيعة الإيمان وسط الألم. رغم بعض التَّكرار والانتقالات المفاجئة أحيانًا، نجح رامتشاندرا في بناء خطاب صادق وحقيقيّ.

أخيرًا،

هذا كتابٌ لمن يُختَبَرُ إيمانهم بالله بفعل الشَّرّ والألم والحزن الذي يحيط بنا في عالمنا المُحَاصَر.

هذا كتابٌ لـ "...غاضبون ليس فقط من الأعمال الإنسانيَّة الوحشيَّة الفظيعة والخداع، بل أيضًا من الذَّبح الوحشيّ للحيوانات وتدمير مواطنها الطبيعيَّة."[11]

هذا كتابٌ ربما يفتح عقلك على فهم مختلف للألم، لكنه بالتَّأكيد سيفتح قلبك على إحساس أكثر رهافة بالمتألمين من حولك.

أعترف، أنّني لم أعُد ذاك الذي كنت عليه قبل قراءة هذا الكتاب!

[11] رامتشاندرا، **ضحك سارة: الشك والدموع والرجاء المسيحي**، 18.